

Intangible cultural heritage: A socio - anthropological approach

"El Tarf area as a model"

Dr. MOULDI BECHINIA

University of Chadli Bendjedid, El Tarf (Algeria), E-mail: bechinia-mouldi@univ-eltarf.dz

Received: 12/2024, Published: 02/2025

Abstract:

This article is part of socio-anthropological research. It is a field of research that allows researchers in popular culture to approach aspects of daily local life, know its manifestations and elements, determine how they interact with each other in reality, and monitor the sociological models that result from that interaction that cannot be understood except with the help of anthropological knowledge. Meaning that this article will begin its study of the Intangible cultural heritage in the Al -Taref region of Algeria from prominent sociological elements on the surface of the daily life of society, but whose roots lie deep in the deep depth of the human culture of the region, which makes the issue of approaching it and providing explanations for it require the use of anthropology as the science of human.

Keywords: Heritage, cultural, Intangible, région, Al-Taref.

التراث الثقافي غير المادي: مقارنة سوسيو- أنثروبولوجية "منطقة الطارف نموذجاً"

د. مولدي بشينية

جامعة الشاذلي بن جديد، الطارف (الجزائر)، البريد الإلكتروني: bechinia-mouldi@univ-eltarf.dz

الملخص:

يندرج هذا المقال ضمن الأبحاث السوسيو - أنثروبولوجية؛ وهو مجال بحثي يُتيح للباحثين في الثقافة الشعبية مقارنة أوجه الحياة المحلية اليومية ومعرفة مظاهرها وعناصرها وتحديد كفاءات احتكاكها ببعضها البعض في الواقع ورصد ما ينجم عن ذلك الاحتكاك من نماذج سوسيولوجية لا يمكن فهمها وسبر أغوارها إلا بالاستعانة بآليات ومعارف أنثروبولوجية. أي أنّ هذا المقال سينطلق في دراسته للتراث الثقافي غير المادي في منطقة الطارف الجزائرية من عناصر سوسيولوجية بارزة على سطح حياة المجتمع اليومية ولكن جذورها ثابته في العمق العميق لإنسان المنطقة، مما يجعل مسألة مقاربتها وتقديم تفسيرات لها يتطلب الاستعانة بالأنثروبولوجيا باعتبارها علم الإنسان.

الكلمات المفتاحية: التراث، الثقافي، غير المادي، منطقة، الطارف.

1. مقدمة:

يندرج هذا المقال العلمي ضمن الأبحاث السوسيو - أنثروبولوجية؛ وهو مجال بحثي يُتيح للباحثين في الثقافة الشعبية مقارنة أوجه الحياة المحلية اليومية ومعرفة مظاهرها وعناصرها وتحديد كفاءات احتكاكها ببعضها البعض في الواقع ورصد ما ينجم عن ذلك الاحتكاك من نماذج سوسيولوجية لا يمكن فهمها وسبر أغوارها إلا بالاستعانة بآليات ومعارف أنثروبولوجية. أي

أنّ هذا المقال سينطلق في دراسته للتراث الثقافي غير المادّي في منطقة الطارف الجزائرية من عناصر سوسيوولوجية بارزة على سطح الحياة اليومية للمجتمع ولكنّ جذورها ثابّة في العمق العميق لإنسان المنطقة ممّا يجعل تفسيرها يتطلّب الاستعانة بالأنثروبولوجيا باعتبارها علم الإنسان.

والحقيقة أنّ هذا المقال ينخرط في سياق الجهود المبذولة من قبل المشتغلين في حقل التراث الثقافي الجزائري بهدف جمعه وحفظه ودراسته وتفعيله أيضا؛ وهي جهود تلبي نداءات مستمرة تصدرها منظمة (اليونسكو) لتنمية الوعي بأهمية التراث الثقافي لدى مجتمعات العالم قاطبة وذلك بتشجيعها لهم على بناء جسور التعاون بين التراث ومبدعيه ومالكيه والباحثين فيه والجمعيات والوكالات المحليّة المهتمّة به أيضا؛ بغية المحافظة عليه وتيسير التعريف به ولما لا إدماجه في عملية التنمية المستدامة كي تتحقّق له الفاعلية والاندماج والعالميّة.

وإذ يتّخذ البحث منطقة الطارف الجزائرية مجالاً له ومن تراثها الثقافي غير المادي موضوعاً للدراسة فذلك لثلاثة مبررات أساسية أوجزها فيما يأتي:

أ- وفرة المادّة الثقافيّة الشعبيّة المجموعه: فقد صار القول ممكناً الآن أنّ المادّة الثقافيّة الشعبيّة المجموعه من منطقة الطارف؛ سواء على مستوى قسم اللغة العربيّة وأدائها أو على مستوى مخبر التراث والدراسات اللسانيّة بجامعة الشاذلي بن جديد، تجعل مسألة دراستها أمراً ممكناً ومشروعاً.

ب- استراتيجيّة دراسة الكلّ الجزائري عبر دراسة الجزء الجزائري: فقد أتاح تشجّع الباحثين في حقل التراث الثقافي الجزائري منذ فترة طويلة نسبياً ودراسته منطقة منطقة، الفرصة لهذا البحث للتوجّه إلى دراسة التراث الثقافي غير المادي في منطقة الطارف بالتحديد؛ وذلك مادام هذا التوجّه لا يتعارض مع الإستراتيجيات العامّة للبحث العلمي في الجزائر المتمثّلة في دراسة الكلّ الثقافي الجزائري عبر دراسة الأجزاء الثقافيّة المكوّنة له.

واستراتيجيّة دراسة الكلّ الثقافي عبر دراسة الأجزاء الثقافيّة توجّه علمي حكيم ولا يدعو إلى التجزئة من أجل التجزئة في الحقيقة، بقدر ما يدعو إلى جمع أجزاء الصورة الثقافيّة للجزائر ككلّ حتى تصير كاملة لا غير؛ وهي لن تصير كذلك إلا بعد إبراز مظاهر وأشكال التنوّع والثراء في تركيبها والوقوف عند مدى تناغم أجزائها على مختلف الأصعدة والمستويات⁽¹⁾.

ج- شساعة الجزائر وثراء تراثها الثقافي غير المادي: فالجزائر شاسعة وتراثها ثريّ إلى درجة يصعب على أيّ خلية بحثية أو فرقة بحث جمعه ومقارنته ناهيك عن باحث يروم جمعه ومقارنته بمفرده. ولتيسير عمليات جمع وتوثيق ومقاربة التراث - في ظلّ المخاطر المتنوّعة التي تهدّد وجوده- أصبح لزاماً على الباحثين عبر الوطن أن يسارع كلّ واحد منهم أو في خلايا أو فرق بحث إلى العمل عليه كلّ على مستوى منطقته؛ من باب "إنّ الجمل الثقيل يخفّ عندما يحمله اثنان".

وسأجتهّد في هذه الدراسة لوصف المجتمع الشعبي في منطقة الطارف من خلال مقاربة الإنسان والمكان أولاً، ثمّ رصد أشكال تراثها الثقافي غير المادي والتمثيل له قدر الإمكان بشواهد دالّة عليه ثانياً، ثمّ مقارنته مقاربة تراعي سوسيوولوجيا النصوص الحكائيّة في علاقتها بالمحيط التاريخي والثقافي والاجتماعي والسياسي المنتج وتقديم تفسيرات لبعض التفاصيل الثقافيّة الثابّة فيها بالاعتماد على آليات ومعارف الأنثروبولوجيا باعتبارها علم الإنسان.

1. منطقة الطارف بين المكان والإنسان:

1.1. المكان:

الطارف منطقة حدودية يغلب عليها الطابع الجبلي ويعتمد اقتصادها على الفلاحة والسياحة. وهي تقع في الشمال الشرقي للجزائر يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب منطقتا سوق أهراس وقالمة ومن الشرق القطر التونسي ومن الغرب منطقة عنابة. وتنال منطقة الطارف نسبة لا بأس بها من الرطوبة كما تنزل بها الثلوج ويكسوها غطاء غابوي مخضر طوال العام. ومن أشهر أشجارها: "الصنوبر والبلوط والسنديان وبوحداد والزان والصفصاف والكاليتوس والزيتون والضرور والخروب والدردار وغيرها"⁽²⁾ كما تزدهر فيها النباتات الرعوية في سفوح الجبال وبحوار الأودية وفي السهول كنبته "الطرفاية" التي تستلذها ماشية المنطقة وترعاها.

وبعد استقصاء شمل عددا معتبرا من ساكنة الطارف، تبين لنا أنهم لا يعرفون لمنطقتهم اسما غير الذي هي عليه الآن، وأنه ليس لديهم إجابة تُشفي الغليل بخصوص توبونوميا التسمية (هنا) الكلّ يجمع على فرضية تطرفها عن باقي مناطق الوطن ووقوعها في أقصى أطرافه الشرقية (فهي لذلك حملت هذا التسمية)، غير أنّ هذه المنحى التوبونومي سرعان ما يضعف لأنّ "الطارف" ليست المنطقة الوحيدة في الجزائر التي تقع متطرفة: فلماذا حملت الطارف هذا الاسم يا ترى؟

للإجابة عن السؤال السابق، لم تسعفي المراجع القليلة جدًا التي تعرّضت لتاريخ أقصى المنطقة الشماليّة الشرقيّة للجزائر، لذلك رجعتُ إلى المعاجم العربيّة القديمة باحثًا عن دلالة لفظ "الطارف" فوجدتُ أن من معاني مادّة [ط-ر-ف] في لسان العرب: "الطريف ضربٌ من الكالأ وهي شجر ليس له خشب، وإثما يخرج عصيًا سمحة في السماء تستلذها الماشية فترعاه، وواحدتها طرفاءة"⁽³⁾ أو "طرفاية" على لهجة أهالي المنطقة الذين يقبلون الهمزة في آخر الكلمة ياءً.

وتتواجد شجرة "الطرفاية" بشكل لافت في منطقة الطارف بحيث يعرفها الكبير والصغير لذا اعتقد أن أصل تسمية المنطقة إنّما يعود إليها؛ خاصّة إذا عرفنا أن ظاهرة تسمية الأماكن والمدن بأسماء النباتات والأشجار المتواجدة بها أو التي كانت متواجدة بها ليست بالظاهرة الغربية عربيًا وجزائريًا؛ إذ يسهل أن تجد أماكن كثيرة في الجزائر تحمل أسماء النباتات أو الأشجار كمدينة عنابة الذي اشتقّ اسمها من شجر "العتاب"؛ بيد أنّ في منطقة الطارف نفسها أماكن كثيرة تحمل أسماء النباتات والأشجار، كعين الكرمة والزيتونة وعين خيار ...

وفيما يخصّ رصيد المنطقة التاريخي فإنّ الشواهد التاريخيّة الماديّة المنتشرة في ربوعها تُشير إلى عراقة وثناء وتنوّع ذلك الرصيد؛ فقد جاء في الوثيقة التي قدّمها مديرية الثقافة بولاية الطارف للمشاركين في الملتقى الوطني للأسلاك الشائكة سنة 1998م، "إنّ علماء الحفريات يُرجعون تعمير المنطقة إلى العصر الحجري القديم، إذ اكتُشف في مناطق مختلفة منها أدوات تؤكّد وجود الإنسان بها في هذه الفترة. كما تمّ العثور على آثار إنسان العصر الحجري القديم الأوسط بمنطقة خليج المقصبة الكبرى ومشته الكليبة وفجّ العلايق".

وإذا كان المقام لا يسمح بتتبع تاريخ المنطقة عصرا عصرا؛ إلا أن ما يجب الإشارة إليه هو أن الشواهد المادية المتبقية بها تشير إلى أن لها تاريخا ضاربا جذوره إلى عصور ما قبل التاريخ؛ غير أن ندرة الوثائق وقلة الدراسات العلمية التي من شأنها أن تقرأ تلك الشواهد، جعل مسألة الحديث عن تاريخ الطارف ضربا من ضروب المجازفة. أما الدراسات القليلة التي راجعها فقد وجدت أنها تناولها كجزء تابع لمنطقة عنابة أو "بايليك" قسنطينة قديما وليس له خصوصياته المميزة.

2.1. الإنسان:

يجدر بنا بداية ونحن نتحدث عن التراث الثقافي غير المادي لدى المجتمع التقليدي في منطقة الطارف، هو أننا بصدد الحديث عن تراث مجتمع له نظامه وتراتبته ومنظومته القيمية التي كانت كانت سائدة خلال حقبة زمنية مضبوطة وفي رقعة جغرافية خاصة ولكنها لم تعد موجودة في الوقت الراهن وبالتالي فإن هذا التراث لم يبق منه إلا بعض الرواسب أو المعارف والمعلومات والتعابير والسلوكيات نظرا للتغيير الكبير الذي لحق بالمجتمع الجزائري بعد الاستقلال؛ وهو الأمر الذي جعل تقديم أي مقارنة له لا تستدعي معارف ومعلومات علمية بينية محكوم عليها بالسطحية والفسل.

وبناء عليه، فإن المجتمع المنطقة التقليدي يتألف من عناصر اندمجت وتفاعلت فيما بينها بفضل وحدة العقيدة واللغة اللتين جاء بهما الدين الإسلامي إلى هذه البلاد في مطلع القرن السابع الميلادي وما ترتب عنه من مظاهر حضارية مختلفة نمت وترعرعت خلال عشرات القرون.

وتتكوّن التركيبة البشرية للمجتمع التقليدي في منطقة الطارف من العائلة ثم القبيلة فالعشيرة فالعرش. ويتألف العرش من عدة قبائل وعشائر مختلفة الأصل والمكانة والأعراف والتقاليد الاجتماعية والاقتصادية، ولكل قبيلة أو عشيرة زعيمها وكبيرها الذي يمثلها ويدافع عن مصالحها في مجلس العرش ويسمى في المنطقة "الشاوش" أو "الكبير".

ويحدث أن يتألف العرش من قبائل ذات أصل واحد كما قد يحدث أن يتزعمه شخص أو مجموعة من الأشخاص؛ يُختارون على أساس كبر السن والتجربة والثقافة والوعي والشرف والشجاعة والغنى أو بعض هذه المكونات. ويمثل الشريط الحدودي الرقعة الجغرافية التي تتمركز فيها مختلف الأعراس الممثلة للتركيب البشرية في المنطقة.⁽⁴⁾

ومّا يستحق الذكر هو أنّ المحافظة على الانتساب إلى العرش تنتقل من جيل إلى جيل ويتم تكريسها بصور وسلوكيات مختلفة؛ من بينها احترام تراث الأسلاف المادي وغير المادي؛ سواء في المناسبات الاجتماعية كالأفراح والأتراح أو في المناسبات الدينية كالأعياد أو ما تعلق بأعياد الأعراس كالزردة والوزيعة والوزية⁽⁵⁾ أو خلال المناسبات السياسية؛ والغرض من المحافظة على ظاهرة الانتساب هو تقوية التماسك الاجتماعي وتعزيزه؛ ويبدو ذلك من خلال عبارات (البركة، الأصل، الأولين، التاريخ الجدود، الشرف...) التي تعبّر عن الموقع الروحي والاقتصادي والسياسي للعرش.

وينتظم المجتمع التقليدي في المنطقة انتظاما يهدف إلى تكريس الولاء لإرث الأسلاف وضمان استمراريته؛ اعتقادا من ذلك المجتمع أنّ الولاء لإرث الأسلاف يضمن بقاء الفرد والجماعة كليهما؛ فهو بذلك من أقدس المقدسات لديهم نظرا لارتباطه بعنصري الانتماء وضمان البقاء.

ويعدّ التنظيم العائلي من أبرز مظاهر التنظيم الاجتماعي في المجتمع التقليدي بمنطقة الطارف فالعائلة التقليدية موسّعة تعيش في أحضانها عدة عائلات تحت سقف واحد تُسمّى "الدار الكبيرة" ويمثّل الأبّ والجّد القائد الروحي للعائلة والمسير

والمخطّط والممّون لها. والنسب في العائلة ذكوري والانتماء أبويّ ويبقى انتماء الأمّ لأبها. أما الميراث فينتقل من الأب إلى الابن الأكبر بداعي المحافظة على الإرث العائلي وصيانتته وحمایته من المخاطر المختلفة.

ومن المظاهر الاجتماعية البارزة لدى مجتمع المنطقة تزويج البنت في سنّ مبكرة وعدم إشراكها في الإرث إذا ما تزوّجت إلا في ظروف خاصّة. و"الحشمة" من ذكر اسم الزوجة فتنادى بعبارات مثل (الدار، العيلة، أم لولاد، الفاميلة، المخلوقة...)، متبوعة بعبارة (حاشاك). وقد تدلّ الحشمة من ذكر اسم المرأة عموماً والزوجة بشكل خاصّ على اعتقاد شعبي ينظر إلى جنس الأنثى نظرة دونية؛ فكلمة (حاشاك) تُقال لتستثني الرجل أن يكون من جنس المرأة من جهة ومن جهة أخرى لأنها (المرأة) في عرف العامة نجاسة، ليصبح المقصود بالتالي: "حاشاك أن يمسك النجس". ومن العبارات الداعمة لهذا الاعتقاد الشعبي في أقوال العامة: "معرفتک في النساء نجاسة ومعرفتک في الرجال كنوز".

ولممثل الدين (الإمام، المفتي، الطالب، مؤدّب الأطفال) مكانة خاصّة لدى السكّان فبالإضافة إلى حضوره في مختلف العبادات، فهو يحضر كذلك في ميادين المعاملات كالإرث والزواج والطلاق والشفعة والرهن ومختلف العقود والعهود والمصالحات؛ ويصل الأمر لدى المجتمع الشعبي الطارفي، إلى حدّ أنّ اسم المولود الجديد يتمّ اختياره من قبل "الطالب" وذلك حتى تكون له علاقة بأسماء الأجداد من جهة، وتكون له علاقة بالكواكب والنجوم والبركة والحفظ من المصائب من جهة أخرى. ولم يمنع التمسك بالدين الإسلامي الحنيف من ظهور عدّة سلوكيات نابية؛ اعتقد أنّها راسب لبعض الممارسات الخرافية البدائية أو الدخيلة التي علقت في اللاشعور الجمعي للسكّان كالإيمان بقدرة الموتى على مساعدة الأحياء في إنجاب الأطفال والتصدي لمختلف المخاطر المُحدقة بهم وحمایة أموالهم وممتلكاتهم ومنع المصائب عنهم ومدّهم بالقوّة والشفاء من مختلف الأمراض والأسقام؛ لذلك تجد السكّان يُقيمون (الزردات) على قبور هؤلاء الموتى وأضرحتهم ويؤمنون بجدوى التمايم والتعاويد و(الحروز) في معالجة الأمراض ويلجئون إلى الزهد والتقيّف في الحياة إلى حدّ التواكل أحياناً.

2. واقع التراث الثقافي غير المادي في منطقة الطارف:

يُعدّ تعريف "ادوار تايلور" للثقافة من أشمل التعريفات وأكثرها شيوعاً بين الدارسين حتّى الآن. وقد ذهب فيه إلى أنّها "كل مرّكب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف وغير ذلك من الإمكانيات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع"⁽⁶⁾.

ويكتسب تعريف "تايلور" قيمته من إبراز العناصر اللامادية لحياة الناس في جماعة؛ كالمعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والأعراف والعادات التي تنشأ كلّها من التفاعل الاجتماعي. ويكتسب قيمته أيضاً، من تقاطعه مع تعريفات منظمة اليونسكو في (اتفاقية 2003) المتعلّقة بالمحافظة على التراث الثقافي غير المادي (مادة 1-2)؛ والتي تعرّفه بكونه كلّ "الأعمال والتمثّلات والتعبير والمعارف، بالإضافة إلى الأدوات والأشياء والمجالات الثقافية المرتبطة بها التي تعتبرها المجتمعات والجماعات بل والأفراد جزءاً من تراثها الثقافي"⁽⁷⁾.

وتتوقّر منطقة الطارف على تراث ثقافي غير مادي غنيّ ومتنوّع ولا يزال بعضه ينبض بالحياة ويؤثّر في سلوكيات السكّان وطرائق تفكيرهم ولكنّ بعضه الآخر بدأ يفقد شيئاً فشيئاً تلك الحيوية بفعل ما طرأ على المجتمعات الحديثة من عصرنة وهجرة وتعمير؛ التي تعمل جميعها بلا رحمة من أجل سحب قيم الأصالة والعراقة عن مجتمعاتنا اليوم وتبديلها بقيم أخرى.

ويتكوّن تراث المنطقة من كلّ أشكال التعبير التقليدي التي نجدها في كلّ المجتمعات التي تجتهد للمحافظة على قيمها الأصيلة. ونجد ضمن هذا النوع من التراث خمسة فروع أساسية وهي: المعتقدات والمعارف الشعبية والعادات والتقاليد الشعبية

والأدب الشعبي والأمثال الشعبية وأدب الأفراح الشعبية. وسأعمل فيما يأتي من فقرات على رصد بعض هذه الفروع والتمثيل لها بنماذج حية جارية الاستعمال عند السكّان إلى غاية اليوم، مع تقديم مقاربة لها بهدف التعرف على تركيبها المجتمعية النفسية ومحددات مرتكزاته الذهنية والوقوف على مدى حيويتها وتأثيرها عليه.

1.2. المعتقدات والمعارف الشعبية:

تعتبر المعتقدات والمعارف الشعبية عناصر هامة من عناصر التراث الشعبي ويقصد بها "تلك الأفكار التي يؤمن بها الشعب فيما يتعلّق بالعالم الخارجي وما وراء الطبيعة"⁽⁸⁾. وهي لدى المجتمع الشعبي - قيد البحث- إمّا نابعة من نفسيات أبنائه بدافع حبّ المعرفة والاستطلاع الذي جُبل عليهما الإنسان أو هي معتقدات مذهبية بائدة كالأرواحية⁽⁹⁾ (animisme) والفيثيشية⁽¹⁰⁾ (fétichisme) والطوطمية⁽¹¹⁾ (totémisme) أو هي معتقدات مرتبطة بالأديان السماوية كالمسيحية أو الإسلام أو غيرهما من الأديان التي عرفتها المنطقة عبر التاريخ.

ومن المعتقدات النابعة من نفسية المجتمع الشعبي المحلي، التنجيم وقراءة الكفّ وقراءة الفنجان وقراءة خطّ الرمل؛ وهي كلّها ممارسات نابعة من خوف الإنسان من المستقبل وممّا تُخفيه عنه الأقدار أو نابعة من حبّ المعرفة والاستطلاع عموماً أو رغبة منه في السيطرة على ما يُحيط به أو بدافع حاجته إلى إنكار ما يحسّ به من عجز إزاء ما يعترضه من ظواهر عصية على الفهم.

وفيما يخصّ الاعتقاد في المذاهب البائدة نجد روايب ذلك في سلوكات مجتمع المنطقة وتراثه الشعبي الذي ما يزال يستحضر الأرواح (المذهب الروحي) ويعتقد في قوّة وفاعليّة أشياء السلف (المذهب الفيثيشي) ويسمّي أشخاصه تسميات لها علاقة بعناصر الطبيعة كشمس وقمر وورعد وبرق وبالأحجار الكريمة كذهب والذهبي وفضّة ومرجان ومرجانة وياقوت وبالحيوانات الوحشية واليفة مثل غزال والوحشي والعجمي وبومعزة وخروفة وبونعجة وفلّوسة وحمامة ويسمّون أماكنهم بأسماء النبات والأشجار أو بأسماء منتجات الطبيعة مثل "عين خيار والزيتونة وعين الكرمة وعين العسل وفج العليقة وغيرها ... وفيما يخصّ المعتقدات الدينية، فإنّ مجتمع المنطقة بمقوماته الثقافية والحضارية والتاريخية، يُعدّ جزء لا يتجزأ عن المجتمع الجزائري المسلم. ومن الشواهد الدالة على تمسّكه بالإسلام تفانيه في بناء المساجد وتوقيره المُفتي والطالب والإمام ومشايخ الزوايا التي كانت قائمة بالمنطقة⁽¹²⁾ وإيمانه بوحدانية الله وتسليمه له بالربوبية وإيمانه بالقضاء والقدر والرسول والكتب وإقامته أركان الإسلام وحرصه على تعلّم العربية وحفظ القرآن والتفكّه في الدين.

وبالإضافة إلى المعتقدات السابقة هناك أفكار ومعارف كوّنها المجتمع الشعبي مناط الدرس حول مختلف الظواهر الطبيعية المحيطة به، منها ما يتّصل بالمناخ وتغيّراته أو بالبيئة وعلاقتها ومنها ما يتّصل بخصائص الأيام والشهور والفصول؛ ومن الشواهد التراثية الدالة على ذلك قولهم (ما يحسب جديانه وخرفانه حتى تُفوت فِرّة حَيّانه) وقولهم (فوزار إيبول لِعزوز بحدّا التار) وقولهم (مارس إبيض فيه لِحجلّ والجزارس) وقولهم (في إبرير تطلّع السبولة من شاع البير).

وبالإضافة إلى المعارف السابقة توجد معارف تلخص نظرة المجتمع التقليدي إلى الكون؛ إذ يُعتقد أنّ (الأرض موضوعة على قرن ثور) و(القمر يضم صورة امرأة مشنوقة عقابا لها لأنها مسحت فضلات ابنها برغيف خبز) و(ظهور قوس قزح يعني أن الذئب أقام عرسا احتفالا بصيد عنصر من القطيع) وغير ذلك من التصوّرات التي تعدّ - في الحقيقة- إجابات ساذجة عن أسئلة معقّدة يعجز العقل الشعبي البسيط عن تفسيرها تفسيراً معقولاً، إلّا أنّه يأبى أن يقف عندها حائراً دون أن يقدم لها مثل هذه التفسيرات لإسكات الفضول.

أمّا فيما يخصّ الظواهر النفسية المختلفة التي صادفها الإنسان الشعبي في المنطقة فقد أشبع فضوله لمعرفة تفاصيلها بتقديم تفسيرات لها رأها مناسبة؛ (فالعين عندما ترفّ فإنّ الأذى سيلحق بصاحبها) وفي هذه الحالة فإنّ ترديد عبارة (كانك عالخير ربيّ وكانك عالشرّ كقي) حاضر لديه. والحقيقة أنّ المقام يضيق لسرد مختلف التصوّرات والأفكار المتعلقة بالمياه والنباتات والحيوانات واللحوم والكلمات والأعداد وغيرها.

2.2. العادات والتقاليد الشعبية:

لا تقلّ العادات والتقاليد لدى المجتمع الشعبي في منطقة الطارف أهمية عن المعتقدات والمعارف الشعبية وذلك نظراً لسعة انتشارها وتفاعل عناصر المجتمع معها واستنادها على موروث مترسّب قويّ يدعمها حتّى أصبح لها سلطة على الناس. ومن العادات والتقاليد التي يحرصون على تكريسها إلى يومنا هذا، ما اتصل بالأعراس (العرضة، الحنة، الدخلة) وطقوس النّفاث (وضع الموس تحت وسادة المرأة النافس وتدوير كعبة رجلها اليمنى بقطعة قماش حمراء تحتوي على السينوج والملح والقمح)، والاحتفال بقدوم الربيع وجزّ الصوف وجني المحاصيل الزراعية وما يرافقها من أهزج شعبية وعادات النوم والجلوس والكلام والسماع ...

وأسجّل في هذا المقام انتشار تقليد "الزردة" وممارسة المجتمع الشعبي له إلى غاية كتابة هذه الأسطر، وما يصاحبه من إقامة الحفلات على قبور وأضرحة الأولياء وطلب العون منهم. والوئيّ في عرف أهل المنطقة رجل كان يقوم بمهمة التعليم والتوجيه إلى جانب وظيفته الحربية فأطلق عليه اسم (المرباط) لأنّه كان يُربط على الثغور لحماية أهله ومجتمعه ودينه من هجمات الأعداء ومع مرور الزمن تغيّر مفهومه وأصبح يُطلق على كل زاهد في الدنيا وعندما يموت يُبنى على قبره بيتا بقبة يُطلق عليه لفظ (الجامع) أو (المزارة) أو (القبة)⁽¹³⁾.

ومما يردّه "البرّاح" المكلف من قبل العرش المسؤول على مراسم الزردة وذلك أثناء إعلانه عن تاريخ انعقادها في أحد الأسواق الشعبية قوله: "أمر الله وأمر الصالحين نهاز لرُبعا رُسْمانها ونهار لخميسن فُرْقانها". ومما يردّه زوّار الضريح قولهم: "برّاكتك أجديّ فلان هذي ليك ومالك وناحنا نستنوا وقتاه إنجو ليك هذي لعصيدة على راسك". وقولهم أيضاً: "يعطينا براكتك أجديّ فلان، لفضة ليك ولفظة ليّا، ليك لفظية أجديّ فلان على أكتاف أوليلاه (أولياء الله) الصالحين ليك العصيدة والجواي والشمع، نوكلّ ربي وجدودي الغالين".

2.3. الأدب الشعبي:

مثّل الأدب الشعبي بالنسبة للتراث الثقافي غير المادي بشكل عامّ كمثل القلب في جسم الإنسان من حيث الأهمية؛ فهو بالإضافة إلى كونه "إبداع عفوي أصيل يحمل ملامح الشعب ويحفظ سماته ويؤكد عراقتة ويعبّر بصدق عن همومه اليومية ومعاناة أفرادها على مختلف مستوياتهم وهو صورة لروحهم العامة وشعورهم المشترك"⁽¹⁴⁾؛ فإنّ له أهمية قصوى في التراث الثقافي لأية أمة من الأمم؛ باعتباره أدب عاميتها التقليدي الشفاهي المتوارث جيلاً عن جيل والمعبر عن ذاتيتها والمستهدف تقدّمها الحضاري والراسم لمصالحها. فهو بذلك نتاج اجتماعي وتاريخي هام تعبّر من خلاله الجماعة الشعبية عن توجّهات وآراء اجتماعية ونفسية لها ما يبرّرها في الواقع.

وللأدب الشعبي أنواع كثيرة غير أنّ المتعارف عليه لدى الفولكلوريين هي الأسطورة والخرافة والشعر الشعبي والأقوال الشعبية السائرة والأمثال الشعبية والألغاز الشعبية والأقوال السحرية والموسيقى والرقص الشعبيين والعادات والممارسات والمعتقدات والمهارات الفنية الشعبية

وسأحصر الحديث في هذا المقال على أشكال أدبية شعبية أصبح الحديث عنها أمراً مشروعاً لما نالت من عناية واهتمام في منطقة الطارف؛ سواء على مستوى جمعها أو توثيقها أو دراستها من قبل طلبة قسم اللغة العربية وآدابها المتخصصين في الأدب الشعبي أو من قبل أساتذة وطلبة خلايا البحث بالقسم أو من قبل أعضاء وفرادى مخرى التراث والدراسات اللسانية بجامعة الشاذلي بن جديد. وهذه الأنواع هي أدب الحكاية الشعبية وأدب الأمثال الشعبية وأدب الأفراح الشعبية؛ وسأحاول مقارنة نصوصها مقارنة سوسولوجية من أجل معرفة طرائق تفكير مجتمعها ومدى تعبيرها عن نفسيته ووجدانه.

2.3.1. الحكاية الشعبية:

تحمل الحكاية الشعبية عموماً عناصر وتفاصيل ثقافية عن المجتمع الذي نشأت فيه؛ لأنّ "الحكاية تحفظ في جوهرها بقايا وثنائيات جدّ قديمة وعادات وطقوس قديمة أيضاً"⁽¹⁵⁾. وإذا جئنا إلى الحكايات الشعبية المجموعة من منطقة الطارف⁽¹⁶⁾، فإننا نجد أنها تعكس النظام السوسولوجي السائد في الواقع بدرجاته وطبقاته وتكشف بوضوح عن تصرفات أفراده اتجاه بعضهم البعض؛ فسلطة الأب وقيادته للأسرة واحترام الأمّ وتبعتها لزوجها واحترام الإخوة لبعضهم البعض، كلّها سلوكيات حاضرة في سوسولوجيا النصوص الحكائية.

وتتحدث النصوص الحكائية في المنطقة عن الطموح وتنبيذ الخنوع وترفض الاتكال وتحثّ على إثبات الذات بالعمل. كما تحرص على تقديم تقاليد قديمة حفظها الشعب كإكرام الضيف وتقديس الأعمال اليومية والحرص على إفشاء التحية والحذر من المرأة حفاظاً على مسألة الشرف العائلي والانتصار للضعيف واحتقار الخائن والمنافق والمخادع والحسود والإشادة بالأخوة ورابطة الدمّ وردّ الجميل والبرّ بالوالدين.

والجدير بالذكر هو أنّ مجتمع الحكاية - عموماً - يتخلّق بخلق الدين الإسلامي وذلك على الرغم من احتكاكه وتأثره بالثقافات الوافدة عليه من محيطيه العربي والغربي على حدّ سواء، إلّا أنّ ذلك المجتمع استطاع بعبقريته الفذة أن يصهر العناصر الثقافية الأصيلة والدخيلة في بوتقة واحدة لينتج ثقافته المحلية الخاصة التي لا تبدو في مجملها أنّها تتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي الحنيف؛ بيد أنّ عناصر ثقافية رأيها ذات أصول وثنائية استطاع المجتمع المحلي أن يجعلها في صورة لا تتناقى والمعتقد الإسلامي؛ من منطلق أنّ "الديانات الحاضرة قادرة على طمس الأشكال القديمة وإحلالها بأخرى جديدة"⁽¹⁷⁾.

وبالإضافة إلى الموضوعات الاجتماعية التي تحفل بها الحكاية الشعبية المجموعة من منطقة الطارف، نعثر على موضوعات تعبّر عن موقف إنسان المنطقة من العالم الغيبي. فالحكايات لم تتوقّف عند حدود التعبير عن الواقع المعلوم للإنسان بل تجاوزته للتعبير عن موقفه إزاء العالم الغيبي المجهول أيضاً؛ وقد تراوح هذا الموقف بين الإيمان والخوف؛ الإيمان بغيبيات ذلك العالم من جهة والخوف والخشية منها من جهة أخرى. ولعلّ من التيمات الحاضرة في هذا المجال، الإيمان بالله وإسناد الرزق له والتسليم بالقضاء والقدر.

غير أنّ اعتناق المجتمع الشعبي في المنطقة للدين الإسلامي وتسليمه بكل أركانه لم يمنع من ظهور العديد من المعتقدات التي ألفت ممارستها وذلك على الرغم من تعارضها مع مبادئ الدين الإسلامي الحنيف؛ فقد شكّل الخوف وحبّ الاستطلاع والاستحياء من إظهار العجز أمام وضعيات وظواهر مختلفة، دوافع قويّة لدى بعض الشعبيين للبحث عن مزيد من المعرفة الموصلة إلى الطمأنينة والاستقرار النفسي؛ ولبلوغهما التمسوا كلّ السبل لهتا "وراء المجهول بحثاً عمّا يُرضيهم أو يطمئنتهم أو ينذرهم عن المستقبل أو ينذرهم من ويلاته أو يحضّهم على إتيان فعل علاجي أو وقائي"⁽¹⁸⁾؛ وهي معتقدات بارزة في سوسولوجيا النصوص المجموعة من المنطقة تتصل بالتنجيم (occultisme) وتحضير الأرواح وبالاعتقاد في الحلم وبالاعتقاد في الأولياء.

وللتقليل من ضغط الحياة وسطوتها على نفسيته لجأ الإنسان الشعبي الطارفي إلى الاحتفاء بشكل حكائي خاص بهذا الغرض ألا وهو أدب الحكايات الهزلية؛ هادفاً من وراءه إلى بث الضحك في النفوس المنهكة والسخرية من المشاكل والعراقيل التي تعترض حياته.

وتأخذ الحكايات الهزلية موضوعاتها من الحياة اليومية بشكل عام ممّا يقلّل - بدرجة كبيرة - من ظهور الخوارق فيها؛ وهي حتى وإن ظهرت، فذلك من أجل خدمة الموقف المرح نفسه. والمتعمّن في موضوعات الحكايات الهزلية يرى أن وظيفتها لا تقتصر على التخفيف من سطوة الحياة ومشاقها بل تتعدّى إلى أداء وظائف تربويّة تهدف إلى حفظ الآداب والنظام العامّين و"التقويم الاجتماعي؛ وذلك حين يصبح الضحك السيف المصلط على رقاب الخارجين على القيم والآداب العامّة وكلّ من تحدّته نفسه بالخروج عن قوانين المجتمع وأساليب سلوكه فإنّه لا بدّ من أن يُستهدَفَ لسخريتها اللاذعة"⁽¹⁹⁾.

2.3.2. الأمثال الشعبية:

المثل قول مأثور موجز العبارة يتضمّن فكرة صائبة أو قاعدة من قواعد السلوك الإنساني أطلقه شخص من عامّة الناس في ظرف من الظروف ثم شاع على الألسن وأخذ الناس يتداولونه في مختلف المناسبات التي تشبه الظرف الذي قيل فيه أوّل مرّة وذلك لولع العامّة بمثل هذه العبارات القصيرة التي تعبّر عمّا يجيش في صدورهم ممّا لا يتيسّر لها في كثير من الأحيان أن تحسن التعبير عنه بغيره. والمثل في الغالب يصدر عن قصّة أو حادثة معيّنة قيل فيها لها اتصال وثيق بالبيئة الاجتماعيّة والطبيعيّة وبالحوادث الفردية. وهو تعبير يُبرز قدرة منتجيه الفائقة على تركيز الفكرة وإيرادها بأوجز لفظ مُمكن.

وللأمثال سلطة على أفراد المجتمع الذي تنتشر فيه. لذلك يحرص الجميع على الاعتماد عليها في كلامهم لتشمل جوانب مختلفة من حياتهم كالزراعة والصناعة والتربية والتعليم. والمتعمّن في الأمثال المنتشرة في منطقة الطارف يدرك الحقب التاريخيّة التي مرّت بها المنطقة فمن خلال أمثال شعبيّة من قبيل: (الرقدة في الجبانة ولا فُعاد الهانة) - (إجر يا تاعس على الناعس) - (الذيب إشهّد بعصوصه)، ندرك تجذّر العنصر البربري في المنطقة الذي لم تعبّر عنه سلوكات أهلها وبعض ألبستهم وأمزجتهم الموافقة لبعض سلوكات وألبسة وأمزجة العنصر البربري فقط وإنّما تعبّر عنه أيضاً كلمات (الجبانة - بعصوصو) الواردة في الأمثال السابقة.

كما يُلاحظ على سوسيوولوجيا نصوص أمثال المنطقة ورود بعض الكلمات اللاتينيّة وانتشار بعض المعتقدات الرومانيّة في ثناياها، وهي معتقدات لازالت تُشكّل رواسب ثقافيّة في وجدانيات وعقول أهل المنطقة وفي لا شعورهم الجمعي. ومن تلك المعتقدات "وَاحِدٌ عَبْدٌ حَجْرَةٌ نال منها"؛ فهذا المثل يحمل في ثناياه معتقداً وثنيّاً؛ باعتبار أنّ الرومان (عبدة الأوثان والأحجار) لمّا استعمروا هذه المنطقة جلبوا معهم معتقداتهم التي مازالت رواسبها عالقة في أذهان بعض الشعبيين رغم زوال الرومان ومجيء الدين الإسلامي الحنيف واعتناقهم له.

ومن المعارف الكامنة في أمثال المجتمع التقليدي للمنطقة تلك التي تعبّر عن مظاهر التواجد التركي بالجزائر وموقف إنسان المنطقة منه ومن النماذج الدالّة على ذلك: (كلب ينبع تُركي معدّي) و(ما تُقعدُ في طريق البايك ما تَعْفَسِكُ زوايلة) و(التلّ يخلّى وتزول منه الذخاير وتسير النخلة برخله ولا شكّ تخلّى دزائر).

فالأمثال الشعبيّة سالفه الذكر مثلما تعبّر عن حقبة التواجد التركي بالجزائر إلا أنّها لم تهمل التعبير عن موقف إنسان المنطقة منه؛ فالمثل الأول يعبّر عن عدم انسجام العنصر التركي مع المجتمع الشعبي المحلي ويعود ذلك إلى ترفّعه وتجبّره. أمّا المثل الشعبي الثاني فيضمّ مصطلحا إداريّاً تركيّاً وهو (الباييك) الذي يعبّر عن التقسيم الإداري الذي جاء به الأتراك أثناء تواجدهم بالجزائر (باييك الشرق باييك الوسط باييك الغرب). أمّا الثالث فمورده الضرائب والإتاوات العثمانيّة التي أثقلت كاهل الفلاحين فلجئوا إلى الجبال ليشتغلوا بالرعي تاركين الفلاحة ممّا انعكس سلباً على الوضع المعيشي للجزائريين عموماً.

وبخصوص تأثير الثقافة العربية الإسلامية على شكل ومضمون الأمثال الشعبية للمنطقة، فهو تأثير بادٍ عليها بوضوح؛ إن لم نقل أن أغلب أمثال المنطقة اصطبغت بصبغة إسلامية. ومن خلال ما تقدم ذكره يتضح أن المثل الشعبي في منطقة الطارف حايث مراحل تاريخية عديدة وتفاعل معها تفاعلا ينم عن حيوية المجتمع الشعبي الطارف وقدرته على التعبير عن أفكاره وأحاسيسه وجميع انشغالاته المادية والمعنوية عبر أقصر الطرق وأنجعها.

2.3.3. أدب الأفراح الشعبية:

تعدّ الأفراح لدى مختلف المجتمعات ظاهرة اجتماعية بارزة في المشهد الاجتماعي يُعبرُ من خلالها عن حالة الابتهاج والسعادة والسرور التي تعيشها الجماعة أو الفرد (حسب طبيعة الفرح) مبرزين فيها طقوسا وقيما وعادات أقلّ ما يقال عنها أنها تسعى قدر الإمكان لغرس ثقافة المرح والسعادة في النفوس. وللأفراح مناسبات عديدة لدى أهالي المنطقة منها الزواج والختان والفرح بالمولود الجديد والاحتفال بقدم الربيع، إلى جانب بعض الأفراح المتصلة بنشاطات اجتماعية أخرى كجني المحاصيل الزراعية الحصاد والبناء. والجدير بالذكر أن كلّ فرح من هذه الأفراح له أدبيات وطقوس وسلوكات خاصة تميّزه عن الآخر.

ولعلّ من أبرز أدبيات الأفراح لدى الإنسان عموما تلك العبارات التي تُقال بشكل خاصّ في الأفراح دون غيرها ومن بينها الغناء الشعبي. ويضرب هذا الأخير جذوره في عمق التاريخ البشري فمنذ أن صارت للإنسان لغة وتكوّنت له أسرة وصار له مجتمع وهو يغني في السراء والضراء وذلك لارتباط الغناء بالعواطف الإنسانية؛ بحيث لا نجد شعبا توقفت جماعته أو أفرادها عن الغناء المفرح أو الحزين وفي أيّ حال من الأحوال. فالغناء على هذا الأساس تعبير إنساني مستمرّ ما استمرت الحياة الإنسانية وقد يكون شعبيا جماعيا وفي هذه الحالة يُعبر عن وجدان الشعب وقد يكون فرديا أيضا وفي هذه الحالة يعبر عن وجدان الفرد المبدع.

وفيما يلي لمحة عن بعض الأدبيات المرتبطة بالزواج التقليدي في منطقة الطارف:

2.3.3.1. أدبيات قبل العرس التقليدي: عادة ما يبدأ الزواج أو بناء البيت باختيار الزوجة واختيارها قد يكون من قبل الأولياء الذين عادة ما يفضلون تزويج أبنائهم ببنات الأعمام أو الأخوال وهذا ما يعرف بزواج الدم؛ لأنهم يرون فيه سترا للشرف وتحسينا للميراث وتكبرا للعائلة وحفاظا عليها من الغريباء. كما يهدفون من خلال ذلك إلى الحفاظ على نمطهم الاجتماعي وعلى عاداتهم وتقاليدهم الخاصة. ومن الأدبيات الشعبية الدالة على ذلك إلى الحفاظ على نمطهم الاجتماعي وخوذ الطريق الصحيحة ولو دارت" و"ملّس من طينك يسجّيلك": بل من شدة تفضيلهم ذلك الأمر عن غيره عبّروا عنه صراحة بقولهم: أدلولة واش أداني ناخذ البراني، ناخذ بن عمي كنشوفو نرح ونغنّ.

وقد يفضلون تزويج أبنائهم بامرأة غريبة، وفي هذا يقولون: "عليك بالسانية لقريبة والمرأ لغريبة"، "وين دمك وين همك؛ ولكن يشترطون فيها أن تكون معروفة الأصل، حسنة التربية وغالبا ما تكون من المنطقة نفسها حيث يقولون: "إدي بنت الأصول لايد الزمان يطول" و"عدّي طريق ملوية ولو كانت دايرة، وإدي بنت دوارك ولو كانت بايرة".

وبعد اختيار الزوجة تتمّ الخطبة وهي عموما طلب الرجل يد امرأة للتزوّج بها والتقدّم إلى ذويها للتفاوض في أمر العقد ومعرفة مطالبهم بشأنه. وأما الخطبة التقليدية لدى المجتمع الشعبي في منطقة الطارف فقد تصل إلى حدود اختيار الزوجة منذ ولادتها أو حتى قبل ذلك؛ فعبارات مثل "إذا رزقت ببنت عاهدني على تزويجها لابني" واردة بكثرة لدى مجتمع المنطقة.

وبالفعل إذا رُزق الرجل بفتاة يبقى ذلك العهد قائما حتى تكبر، فيأتي أب الابن إلى البنت ويقول له: لقد أتيتك لتنفيذ العهد الذي أخذناه سابقا ويخطبها منه ويتفقا على الالتقاء في السوق لاتمام الاتفاق. والأمر اللافت للنظر أن البنت لا تعلم أنها مخطوبة إلا عند عودة والدها من السوق محملا ب(القضيا) أي المشتريات التي اشترها والد العريس وتتكوّن عادة من اللحم والحلوى والطماطم والسكر والقهوة ... ثمّ يتمّ الاتفاق بين الطرفين على موعد لزيارة أهل العروس في منزلهم وعند وصولهم يقولون لأهلها: "جيناكم خطابة رغابة في بنت لحسب والنسب"، وبعدها يتمّ الاتفاق على المهر الذي يصل إلى ثلاثمائة دينار جزائري كحد أقصى.

كما يحضر أهل العريس إلى دار العروس ما يسمى "الملوك" وهو عبارة عن (طمينة وقندورة ودقلة وبنطوفة). وفي الأخير تتم قراءة الفاتحة مع الطالب (الإمام). وعند رجوع أهل العريس إلى بيتهم يتم تحضير (العصيدة) التي يتفألون بها لتكون العلاقة بين العروسين منسجمة ومتناسكة مثل مكونات العصيدة، إلى جانب (المَحْوَز)²⁰ مع الدقلة والسكر، حيث يحضر الأهل والجيران من دون تقديم دعوة لهم.

2.3.3. أدبيات العرس التقليدي:

في أول يوم يذهب العم إلى السوق لشراء الكسوة ومعه أب العروس وأخوها إن أمكن. أما النساء فيجتمعن في الساحة وهن يزغردن ويرششن الماء لكي تأتي البركة مع العروس حيث يقولون: "باش تجي لعروسة مبروكة سعيدة". ثم يذهبن إلى الغابة للاحتطاب؛ لارتباط الغابة في ذهنيتهن بالمرأة؛ فإذا كانت الأولى ترمز للسرية والخصوبة والتجدد والثراء فإن العروس كالشجرة في حفظ السرّ والإنجاب والخصوبة والعطاء والاستمرارية. ويذهب معهن طفل صغير يحمل بيده منديلا (مَحْرَمَة) ويمشي أمامهن كالحادي معبرا عن وجود عرس، فمن رأت هذا الطفل أدركت المقصد وهرعت لمساعدة النسوة في الاحتطاب. وعند عودة الحطّابة من الحطب، يستقبلهم أهل العروس بالزغاريد وطلقات البارود مرددين عدّة أغاني من بينها هذه الأغنية المشهورة في المنطقة:

يا حتّى صادر غضبان * أحليلي واش إردّه
والدمعة حدرت ويدان * والزينة حرقت قلبه
أوقالك خرجوا لثنان * لثنان خارجين
أوقالك زوز قباطين * من العسة محدرين

وفي اليوم الموالي يأكل الجميع الكسرة المغموسة في زيت الزيتون دون غيرها؛ وتلك الكسرة يتعاون في تحضيرها حوالي اثنتي عشرة امرأة (ستة للعجن وستة للطهي) ويأكل منها الحضور طوال اليوم وعندما تغيب الشمس وتنتهي الكسرة يحمل بعض النساء - وعادة ما تكن كبيرات في السن - الكسكي فوق البغال إضافة إلى شاة حيّة لتنحر في بيت العروس. ثم يلحق بهم المحفل؛ وهو عبارة عن صفوف نسوية ترتدين أزهي ما عندهن من ثياب وحلي وخاصة المتزوجات. وما إن يصلن إلى بيت العروس حتى يدخلن عندها ويجمعن حولها ثم ينزعن عنها ملابسها ويلبسها الملابس التي أحضرها في "الحقبة" التي حملتها أم العريس أو أخته دون غيرهما؛ حماية لها من السحر والشعوذة ويطحرن أمامها الصابون والمرآة والعطر والكُخلة التي حملتها عمّة العريس. ومن العبارات الممنوعة والمحرمة والتي تنبأ بالشرّ والنحس في اعتقاد الأهالي قول أحد الحضور: "أعراسة أعراسة، آلي توكلوا بغناجي العود، تُحْرَم لعروسة على لعريس كيما حُرمت مكّة عالمهود". فإذا سمعوا أحدا قالها ركضوا خلفه حتى أمسكوا به ثم يقومون بربطه وضربه وإلزام والده بذبح شاة وترديد عبارة أخرى ناسخة لها وبصوت عالٍ حتى يزول النحس والشرّ. والعبارة الناسخة هي: "أعراسة أعراسة، آلي توكلوا بغناجي العود، حلّت لعروسة على لعريس كيما حلّت مكّة عالحوجاج".

وفي اليوم الثالث يلبس النسوة العروس ملابسها بما في ذلك "البرنوس" ثم يأتي رجل ليركبها فوق فرس مُزينة وخلفها يركب طفل صغير (يفضل أن يكن ذكرا لكي تنجب العروس أول مواليدها ذكرا) ثم تأتي طفلة ومعها رجل ويقال له (الوزير) - ويكون عادة من الأصحاب المقربين للعريس - لقيادة الفرس ولا يتركها حتى تدخل دار العريس (السلطان)، أين يتم استقبالها بالزغاريد والأغاني مثل قولهم:

شرعي بيتك يا أم لعريس * رانا جبنالك كنيينة نهار لخميس
شرعي بيتك يا أم لعريس * رانا جبنالك كنيينة نهار لخميس
وقولهم: يا مرحبا بعروستنا يا مرحبا * يا مرحبا بنسيبتنا يا مرحبا
يا مرحبا بالفرسان إلي جابوها * يا مرحبا ببنت المضرب يا مرحبا
يا مرحبا بصناديقها يا مرحبا * يا مرحبا ببنت الرايس يا مرحبا

يا مرحبا ببنت الرايس يا مرحبا * يا مرحبا بمربط الفارس يا مرحبا
وقولهم: أي جات وشاقة لمراح وحزامها الطيبة على الطيبة
رخفاته كيف طاح حزام لحرير عامل ضيبة..

4. خاتمة:

إنّ ما يستوجب استخلاصه بعد هذه الرحلة في سوسيو أنثروبولوجيا التراث الثقافي غير المادي في منطقة الطارف، هو أنّ هذا التراث أوسع بكثير ممّا ذكرناه؛ إذ أنّ هناك أشكالاً أخرى كثيرة مجموعة بطريقة منهجية ومحفوظة في أرشيف المكتبة المركزية لجامعة الشاذلي بن جديد بالطارف؛ بيد أنّ عمليات الجمع والتوثيق والدراسة لا تزال مستمرة عبر مخبر التراث والدراسات اللسانية بالجامعة ذاتها.

ولأنّ المقام لا يسمح بسرد ومقاربة كلّ أشكال التراث الثقافي غير المادي بالمنطقة، فإنّ هذه الدراسة ستكتفي بما سلف تدوينه من شواهد ومقاربات، لينتقل صاحبها في وقت لاحق لمقاربة الأفاق المستقبلية للتراث ذاته ولكن في علاقته بمسألة التنمية المستدامة؛ اعتقاداً منه أنّ السبيل الأنجع لردّ الروح لهذا التراث هو الاستثمار فيه بدمجه في عجلة التنمية.

الهوامش:

- 1- يُنظر لهذا الصدد: عبد الحميد بورايو، مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية أشغال الملتقى الوطني الأول المنعقد بتيارت 13-14 أكتوبر، 2002م. دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع الجزائر، ط3 (خاصة بالجزائر عاصمة للثقافة العربية)، 2006م.
- 2- مديرية السياحة والصناعات التقليدية ولاية الطارف، دعوة إلى موطن البحيرات، نشرية تصدر عن مديرية السياحة والصناعات التقليدية بولاية الطارف، عدد 1998م.
- 3- محمد بن منظور، لسان العرب، مادة "طرف".
- 4- من بين الأعراس المعروفة في المنطقة نجد عرش نهد وعرش بني مازن وعرش أولاد علي وعرش أولاد غياث وعرش أولاد عبد الله وأولاد نصر والشياينة وأولاد مسعود وبني صالح والرقامة وأولاد يوب وعرش بني ورجين.
- 5- الوزيعة تقليد يُمارس بالمنطقة حيث تذيب بقرة أو شاة أو عدّة بقرات أو عدّة شياه لتوزّع على عائلات الدوّار أو المتجاورين أو العرش بالتساوي؛ ومن كان لديه مال يدفع الثمن ومن كان فقيراً فلا يدفع. أمّا "الوزية" فمعناها أن (يرى) الكبير أو من يتقون فيه حلماً يزوره فيه كائن له مكانة مشهودة ويأمره بتقديم قربان (أضحى) فيلبي ذلك في الواقع بمساهمة الأهالي ويوزّع عليهم لحم القربان لدفع خطر أو ضرر أو مصيبة ما.
- 6- مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة (233)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو 1977م، ص 09.
- 7- اليونسكو، التراث الثقافي غير المادي، اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي، على محرّك البحث غوغل زرته يوم 2023/01/10م على الساعة 16.13، الرابط: <https://ich.unesco.org/ar/convention>
- 8- أحمد بن نعمان، نفسية الشعب الجزائري، دار الأمة، الجزائر، 1994م، ص 65.
- 9- الأرواح حاضرة في معتقدات سكّان المنطقة وسلوكاتهم حيث هناك منهم من يعتقد بأنّ أرواح موتى البشر أو أرواح عناصر الطبيعة المختلفة تؤدّي دوراً هاماً في حياة الأحياء فيقصدّون لها الذبائح والقربان وتُعدّد لتكريمها الاحتفالات. وتتواجد تلك الأرواح في اعتقادهم في الحقول والتلال والأشجار والماء وعناصر الطبيعة الأخرى. ويظنّ البعض أن هذه الأرواح قد تحلّ في أبدان الناس لتفصح عن احتياجاتها ورغباتها. وقد رد في كتاب "الطوطم والتابو": أنّ "الأرواحيّة - في المعنى الضيق للكلمة- هي علم التصدّوات الروحيّة وفي المعنى الواسع هي علم الكائنات الروحيّة (...). فالشعوب الموجودة وغيرها ترى العالم مسكوناً بما لا يُحصى من الكائنات الروحيّة التي تُضمّر الخير أو الشر. وهذه الأرواح يمكن أن تفارق مسكنها وتنتقل إلى بشر آخرين". يُنظر: سيغموند فرويد الطوطم والتابو، ترجمة بوعلي ياسين، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الأولى، 1983م، ص 97.
- 10- تتشكّل الفيتيشية من تصدّوات العامّة السحرية للعالم والأشياء. وهي عقيدة تعتمد على فكرة مفادها أنّ قوّة العالم أو الكون تجتمع في شيء معين وأنّ تقديس هذا الشيء آت من كونه يحمل قوّة كونية تتشعّ منه لتجعله مميّزاً عن كلّ ما يحيط به من أشياء. ويُعتقد أنّ (الفيتيش) (بمعنى التميمة) يحتوي على قوّة مقدّسة يمكنها دفع الشرّ أو جذب الخير أو تحصين صاحبها.
- 11- لتعريف الطوطمية يطرح "فرويد" السؤال الآتي ويجيب: "ما هو الطوطم؟ في العادة هو حيوان يُؤكل لحمه، مسالم، أو خطر مخيف وفي النادر شجرة أو قوّة طبيعية (مطر، ماء) ذو علاقة خصوصيّة مع كامل العشيرة. فالطوطم هو أولاً الأب الأول للعشيرة ومن ثم الروح الحاميّة لها والمعين

- الذي يرسل لها الوحي والذي - إذا كان خطرا- يعرف أبناءه ويصونهم، ومن أجل ذلك يخضع أبناء الطوطم لالتزام مقدّس رادع ذاتيًا يقضي بأن لا يقتلوا طوطمهم (لا يُيبدونه) وأن يستغنوا عن لحمه (...). ومن وقت لآخر تقام أعياد يعرض فيها أبناء الطوطم أو يقلّدون في رقصات طقوسية حركات وخصائص طوطمهم". يُنظر: فرويد، مرجع المذكور، ص 23.
- 12- من الزوايا المعروفة في المنطقة زاوية دوار الشافية وزاوية علي بلعجي وزاوية خنقة عون وزاوية سبعة رقود وزاوية طلعي بالبساس وزاوية جدّي علي بوقشبية بعين الكرمة وزاوية الدندان بعصفور وزاوية بوحجار.
- 13- من الجوامع والمزارات والقباب المنتشرة في المنطقة (قبة علي بلعجي) بمنطقة وادي الحوت و(جامع سيدي خالد وزاوية جدّي أمحمد) بمنطقة العيون و(جامع جدّي طراد) بمنطقة الزيتونة و(جامع جدّي بوضبية) بمنطقة عين الكرمة. ويزور السكان هذه الأماكن إلى يومنا هذا ويأخذون معهم بعض المأكولات التقليدية كالطينة والعصيدة والغرايف ويقومون بإشعال الشموع وحرق البخور عندها...
- 14- أحمد زياد محبك، من التراث الشعبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان. ط1، 2005م، ص05.
- 15- فلاد يمير بروب، مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة وتقديم أبو بكر باقادر وأحمد عبد الرحيم نصر النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1989م، ص 172.
- 16- يرتكز هذا التحليل في الحقيقة على مدونة بحث لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث (تخصّص أدب شعبي) وهي تتشكّل من ستين حكاية شعبية محلّية جمعها صاحب هذا المقال من أفواه رواة المنطقة الشعبيين لما كان طالبا بقسم اللغة العربية وآدابها في جامعة باجي مختار بعنابة.
- 17- فلاد يمير بروب، مرجع المذكور، ص 284.
- 18- مرسي الصباغ، القصص الشعبي العربي في كتب التراث، دار الوفاء، مصر، د/ط، د/تا، ص91.
- 19- المرجع السابق، ص ن.
- 20- المحوّر: أكلة شعبية تصنع من الكسكسي المفوّر.